مجلة الرائد

العدد : ٢٤٤ الموافق في ربيع الآخر ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٦ ميلادي

عنوان المقال : متى نتبنى " المنظور الوظيفي" للثقافة ؟	الكاتب : أ. أبو زيد المقرئ الادريسي

(١)

تعاني العقلية العربية الإسلامية المعاصرة من معوقات رهيبة ، تعمل عكس اتجاه التنمية الذي نتوخاه جميعاً لأمتنا ، ونخطئ طريقه جميعاً للأسف الشديد !

من هذه المعوقات التصورية ، مفهوم الثقافة عندنا ، الذي ابتعد كثيراً عن الخط الإسلامي الأصيل ، كما لم يلامس بالمرة الخط الحديث للتصور العلمي المعاصر .

لقد أضحينا نفهم الثقافة قرين المعرفة المجردة ، ونفاخر " بمستوياتنا " الثقافية مقرونة بشواهد عليا ، ونمارس كل أشكال التحقير للمحرومين والعاجزين عن الوصول إلى هذه " المستويات " ممن نسميهم جهالاً وأميين ، كل ذلك مع توحد غريب معهم ، وأحياناً تَدَنٍّ عنهم ، في السلوك الاجتماعي!

هذا الفصام يعانيه الساسة كما المربون كما الوعاظ كما المدرسون كما الباحثون لا أحد منهم جميعاً يؤسس سلوكه الاجتماعي على معرفته ، بطريقة وظيفية فاعلة . وهذا سر الاختلال الهام لأحوالنا على جميع المستويات يتزامن مع توسع جامعاتنا ، وتقدم نسب التمدرس في مجتمعاتنا!

ما زالت أبحاثنا العلمية لا تجد طريقها للتطبيق حتى لدى منتجيها ، فالاقتصادي كالواعظ بالزهد كالطبيب كعالم البيئة والاجتماع مثلهم مثل غيرهم من " العوام " إذا أُوْلِمَ بَذَّرَ وبذخ وفاخر وباهى وقدم الأطعمة الدسمة بعد منتصف الليل للضيوف! وهذا مجرد مثال بسيط .

(٢)

للوصول إلى استنتاج قاصد ، دعونا نتبنى المنظور " الوظيفي " للثقافة ، بما هي سلوك الفكر في الواقع الاجتماعي ، كما بينه كل من " طومسون وإليس وولتسون كي " ، في عملهم القيم " نظرية الثقافة " عام ١٩٩٠م الذي هو دفاع علمي عميق عن جدوى تبني المنظور الوظيفي للثقافة ، يقول المؤلفون : « إن

عنوان المقال : متى نتبنى " المنظور الوظيفي" للثقافة ؟	الكاتب : أ. أبو زيد المقرئ الادريسي

استمرارية نمط الحياة يعتمد على وجود علاقة تساندية متبادلة بين تحيز ثقافي معين ونمط محدد للعلاقات الاجتماعية ، وإن القيم المشتركة والمعتقدات لا تتلاقى بشكل عشوائي ، وإنما هي دائماً مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية التي تساعد في إضفاء الشرعية . ولهذا على الأخلاقيين إذا ما أرادوا صياغة نمط حياتهم لأنفسهم أن يتفاوضوا حول مجموعة من القيم والمعتقدات القادرة على دعم هذا النمط ، وهكذا تفرز العلاقات الاجتماعية تفصيلات ومدركات معينة تحفظ بدورها تلك العلاقات التي تسمى الثقافة » .

ويعطي المؤلفون مثالاً تطبيقياً من الثقافة السياسية : « إن النظام الديموقراطي المستقر - مثلاً - يتطلب ثقافة سياسية متوازنة ، هي الثقافة المدنية ، تجمع كلاً من التوجيهات المشاركة والخضوعية نحو السياسة ، فعندما يشارك كل فرد في كل قرار يتعرض النظام السياسي كلما جادل هذا الفرد إلى ضغوط زائدة ، وتصبح عملية الحكم مستحيلة ، وعندما يخضع كل فرد إلى من هم أعلى منه ، لن تصبح الديموقراطية معبرة عن احتياجات المواطنين مما يفسح الطريق لظهور السلطوية » .

وسيراً على الخط نفسه ، صاغ " روني ماغو " رئيس اليونسكو السابق ، هذه القاعدة الذهبية : « **التنمية هي العلم حينما يصبح ثقافة ، والحضارة هي الثقافة عندما تصبح سلوكاً اجتماعياً** » . وقد سبق لمركز الاستشراف التابع لوزارة البحث العلمي لفرنسا أن وضع خمسة برامج منذ سنة ١٩٨٥م وصلت إلى تأكيد هذه الحقيقة ، بالطريقة التي بسطها بها " إيليا بريوجورين " ، الحائز على جائزة نوبل في كتابه " التحالف الجديد " ، الذي هو محاولة لإعادة إدماج العلم في منظور ثقافي متكامل بعد أن كان هناك فصل بين العلم باعتباره كونياً وبين الثقافة باعتبارها خصوصية .

المدهش أن نجد في التصور الإسلامي مبادئ وقواعد توصل للمنظور الوظيفي للثقافة : يتكرر دائماً في القرآن الكريم : { ... **الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ... } [البقرة : ٢٥] ، وفي وصف رسول اللّه ﷺ : « **كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ** » رواه أحمد ، و " كان قرآناً يمشي على الأرض " . وفي منهج الإمام مالك : « لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » . وفي مشروع العمر الذي أنجزه رائد اللسانيات الفرنسي " جيرار تروبو " بصدد كتاب " سيبويه " ، خلص إلى تأصيل مصطلحات النحو في المنظور الإسلامي (لتكذيب دعوى تبعية النحو العربي للثقافة اليونانية) ، وكان أهم ما توصل إليه هو تميز المصطلحية الإسلامية بالبعد العملي ، إذ قام بجرد أكثر من مائتي مصطلح لسيبويه وردها إلى أصولها الإسلامية في الفقه والشريعة

والأخلاق " كالنحو " : (الاتجاه ، المذهب ، الطريقة ، الشِّرْعة) ، وفعل الشيء نفسه بمصطلحات : (الحسن والقبيح والجائز والمحال) ، مبيناً أن الكلمة في اللغة العربية والتصور الإسلامي كما المفاهيم في الثقافة الإسلامية ، تُصَوَّر كأشخاص يمشون على الأرض ، يتم تقويم عملهم بمنظور سلوكي خلقي عملي : فالمذهب من الذهاب ، والمجاز من الجواز ، والمحال من التوقف ، والطريقة من المشي ، والنحو من الاتجاه .

وهو الاستنتاج نفسه ، الذي توصل إليه عملاق الفلسفة الإسلامية المعاصر : " طه عبد الرحمن " ، عندما بين أن أساس العقل العربي هو علم الأخلاق .

هذه إشارات سريعة إلى أن التصور الإسلامي الأصيل للثقافة هو تصور وظيفي .

بل إن اللغة العربية ، وهي رابع الأعمدة المعرفية لثقافتنا (بعد القرآن والسنة والتراث) اعتمدت هذا المنظور نفسه في اختيار المصطلح الدال : " الثقافة " ، فهو مستمد من التثقيف أي التقويم والتوجيه وإقامة الاعوجاج ، استناداً إلى معرفة ومهارة فنية عالية تبدأ بالمجال العسكري " تثقيف أعواد النبال والحراب " ، وانتهاء بمجال التربية والتعليم! .

(٣)

لقد كانت معارف الجيل الأول من الصحابة والتابعين محدودة ، تقتصر على القرآن والسنة ، وبعض الخبرات الاجتماعية والفنية المتواضعة بتواضع البيئة المنتجة لها ، لكنهم أنجزوا - رغم ذلك - أضخم عملية تحول جذري عرفتها البشرية عبر تاريخها مست كينونة الإنسان وجوهر وجوده في الكون . في حين نعاني اليوم - مع هذا الإسهال المعرفي الطّامّ - من كل أشكال التخلف والإعاقة ، المعششة في نخاعنا بسبب غياب الجدية اللازمة لتحويل الثقافة إلى بعدها الوظيفي ، وصدق اللّه العظيم : { **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** } [الصف : ٣] .